الآداب

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص.ب ١٠٨٥ — تلفون ٢٣/٠١

اصحاب الامتياز

منير البعلبكي ؛ سهيل ادريس ؛ بهيج عثمان

AL-ĀDĀB : Revue mensuelle culturelle
Beyrouth - Liban. B.P. 1085

المدير المسؤول : بهيج عثمان

رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

هيئة التحرير

(حسب الاحرف الهجائية)

احمد سليمان الأحمد	قدري حافظ طوقان
علي أدهم	عبد الله عبد الدائم
ذو النون ايوب	مارون عبود
خليل تقي الدين	ابراهيم العريض
جورج حنا	عبدالله العلايلي
شاكر خصباك	توفيق يوسف عواد
رئيف خوري	نبيه امين فارس
عبدالعزيز الدوري	شكري فيصل
قسطنطين زريق	نزار قباني
احمد زكي	صباح محيي الدين
نقولا زيادة	انور المعداوي
وداد سكاكيني	نازك الملائكة
فؤاد الشايب	عبد الحميد يونس

قال اناطول فرانس « اننا مسنون حين نولد » وما أصدق كلمته فنحن نرث تقاليد ومقاييس وخبرات كانت النهاية لمن سبق وهي البداية لنا . وإن نحن عدنا اليها فاننا لا نقصد بعث ما كان بل إدراك ما لانزال نعيش فيه وفهم مكوناتنا ومعرفة البداية . ومتى أدركنا هذه الناحية سلمنا مما يسمى افيون التاريخ ، وأفهمنا من يدعو الى إغفال ماضي ان الشرايين لن تنقطع مع بقاء الحياة .

لقد عنونت كلمتي بـ « خطوط في تاريخنا » ، والواقع ان كل دراسة لتاريخنا تدعو للتساؤل حول نقطتين أساسيتين :

اولاهما : هل ان القيم والمقاييس الخلقية أزلية ام انها تتبدل بتبدل الظروف ؟

وثانيهما : هل نستطيع التوفيق بين الحضارة الغربية والأخذ بها وبين إرثنا الثقافي والاجتماعي ومقاييسنا ، وبتعبير أخصر ، ذاتيتنا؟

أما القيم الأخلاقية فيبدو لي انها بين ناحيتين : ناحية القيمة الذاتية وناحية القيمة التطبيقية . فهذه القيم اتفق عليها صيانة للمجتمع وارتفاعاً

خطوط في تاريخنا

بقلم الدكتور عبد العزيز الدوري

بسويته وتهذيبه وضماناً للطمأنينة فيه . وقد اختلف تطبيقها من عصر الى آخر حسب تطور الظروف . فالصدق والوفاء والاستقامة والعفة قيم خلقية لها أهمية كبرى في كل مجتمع مهذب ولكن التطبيق اختلف . ولعل أقوى مثل لذلك مفهوم العفة فقد ادت العناية بها الى الوأد في فترة ، والى حجر النساء في دورهن في فترات ، والى انواع غريبة من وسائل الحيطة . وهي في القرى لا تمنع الاختلاط المحتشم ، وفي الغرب يقتصر مفهومها على الوفاء المطلق للزوج دون حدود مفهومة قبل ذلك ، وأساسها صيانة العائلة وحماية النسل وتحديد المسؤولية ، وهي في كل حالة وليدة ظروف المجتمع ونواحيه المختلفة . وخذ مثلاً آخر مصلحة المجموع : فانك لن تجد مجتمعاً لا يؤكد على أهمية الجماعة وسلامة المجموع قبل الفرد ، ويظهر ذلك جلياً في كل تشريع ، فتجد القبيلة تضع الرابطة القبلية فوق كل رابطة . ثم تجد رابطة المدينة في حكومات المدن ، ثم رابطة المجتمع الاكبر في الدولة . وهذه الرابطة قوية حين تكون الثقة الاجتماعية وروح الجماعة قوية وتكون مفككة عند الانحلال . ففي القبيلة تجد العصبية القبلية خائرة وتجد عصبية الأسرة تنازعها حين تضعف القبيلة ، وفي المدينة تظهر عصبية

الأسر والعوائل والمحلات وهي عصبيات محربة. وفي الدولة تجد في حالات الانحلال عصبية الأسر (المحسوبية) وعصبية الطوائف والأديان وعصبية الدين ، وكلها تهدد الكيان العام وتجعل عقلاء القوم وقادتهم المخلصين ينادون بوجوب التخلص منها وتوجيه التهذيب الى ما يحفظ الكيان . واذن فالقيمة الذاتية قائمة والتطبيق مختلف ، مع ان كل جهة تتمسك بنوع التطبيق الذي تجد نفسها متجهة اليه . ودراستنا لتاريخ الامة تمكّن من فهم نفسيتها ومن معرفة تلك العصبيات التي أذاقت الامة الامرين وإدراك الروابط التي كونت روح الجماعة وحفظت الكيان في وجه الخطر وكانت مصدر الحركة والقوة الدافعة .

اما النقطة الثانية فهي التوفيق بين الاخذ بالحضارة الغربية وبين ارثنا او ذاتيتنا . وهذه ناحية مهمة يساعدنا التاريخ على جزء هام من الاجابة عنها . ففي العصر القديم جاءت موجة الحضارة اليونانية التي خلفتها البيزنطية فغمرت الشرق الادنى سياسياً وعسكرياً وثقافياً وتغلغلت في المدن وبهرت اصحابها. ولكنها لم تصل القرى والريف ،وبدأت حركة تقليد لها واقتباس منها ثم بدأ رد الفعل تدريجياً في المنطقة. واول رد فعل لها كان نشوء الحضارة الساسانية ونشاط الحضارة الآرامية . ولكن الهلينية بقيت مسيطرة حتى جاءت موجة الاسلام فأكدت الذات المحلية والارث الحضاري من جديد وكونت فيهما قوة الدفع . وقد وجد العرب والمسلمون امامهم حضارات أرقى منهم مادياً وتنظيما وهي حضارات الهلال الخصيب (ساسانية — بيزنطية — آرامية) وتأثروا بها في وضعهم الاجتماعي واقتبسوا بعض العادات وأخذوا بعض النظم الادارية ونقلوا العلوم والفلسفة والطب ، ولكنهم كانت لهم عقيدتهم ومثلهم الخلقية ومقاييسهم وقيمهم ، ولم يكن في الحضارات القائمة من القوى المعنوية والروحية ما يذكر ، فكان نتاج ذلك ان وجهوا النواحي المادية التي اخذوها في خدمة مثلهم وقيمهم، وهذه وجهة مهمة تدل على تركز الذات ورسوخ القيم، وهي صفة تلازم كل حضارة حية في دور الابداع ، لان العلوم مع كونها مجردة الا انها تتلون عادة بطابع الحضارة التي تزدهر فيها .

اما في العصر الحديث فقد غزتنا الموجة الغربية بصورة مفاجئة تذكرنا بالموجة الاولى ، وتغلغلت في المدن ومزقتنا سياسياً وبهرتنا مادياً، ولم تقدم لنا قيماً ومثلاً تحل محل ما لدينا ولكنها زعزعت ثقتنا بها . ولفهم هذه الموجة يلزمنا ان نتذكر ان الحضارة الغربية تتكون من :

١ — التراث اليوناني

٢ — العلم الحديث والطريقة العلمية .

٣ — المسيحية .

وتولدت عن هذه الجذور وعن تطوير المجتمع الغربي ثورات حديثة عالمية الاثر كالثورة الصناعية ومبادىء الثورة الفرنسية والثورة الاشتراكية . وفي الوقت الذي وصلتنا فيه الموجة الغربية كانت قوة الدفع للعلم وللثورة الصناعية بينما لم نر اثراً للتراث اليوناني . وأما المسيحية فشرقية فهي وان كانت أساس القيم والمثل الا أنها ضعفت أمام الموجة الحسية والاتجاهات النفعية التي طغت في الغرب ، وعلى كل حال لم تكن الدافع للتوسع وان مرت فترة استخدمت فيها كوسيلة للمنافع المادية.

وان تلفتنا الى رد الفعل في الشرق العربي وجدناه طبيعياً ذاتياً يتمثل في بحث الثقافة العربية وهذا اساس الوعي القومي، وهذا ما يجعلني اؤكد على انها قومية ثقافية ليست عنصرية وتتمثل في بعث الاسلام في الحركات الاسلامية ، وهذه كلها تؤكد على تثبيت القيم والمثل وعلى تجديد الذات . ومع ان الموجة الغربية جاءت عدائية احياناً وادت الى نفرة منها والى دعوة البعض لمقاومة كل ما هو غربي الا ان آثارها الاجتماعية والاقتصادية والفنية كانت واسعة ، بل ونجد محاولات مبكرة في بعض بلاد الشرق الادنى لاقتباس اساليبها المادية واسلحتها لحماية الذات . وقد دلت البحوث على ان التقاء الحضارات وتأثير الاقوى منها يختلف تبعاً للظروف . فالحضارة الغربية التي جاءت الى الشرق الاقصى تؤكد على الطابع الديني مع العلم بان الصناعة فشلت تماماً في التغلغل وانها حين عادت تؤكد العلمانية والصناعة في القرن التاسع عشر تغلغلت بتأثير هذين العنصرين وانتشرت .

ويلاحظ ان الحضارة او المجتمع الآخذ يحلل الحضارة الغازية الى عناصرها المكونة لها كما تتحلل الاشعة في الماء، وان مقاومة المجتمع المهاجَم حضاريا تشتد كلما كانت قيمة العنصر الحضاري الغازي ثقافية ذاتية وتقل كلما كان طابع العنصر عاماً. ومعنى ذلك ان النوع الاخير يتغلغل بسرعة اقوى من الاول . ولكن هذه التجزئة الى العناصر فيها مخاطر كبيرة فانك حين تجرد عنصراً من بيئته وظروفه التي تجعله في توازن مع العناصر الاخرى وتكسبه قيمته الفعلية قد يصبح خطراً حين ينفرد بنفسه . ولعل تحطيم الذرة في العلوم الطبيعية يعطي مثلاً لذلك ، وبهذا ينطبق

المثل الانكليزي « قد يكون غذاء شخص سماً لشخص آخر » ولكن الموضوع لا ينتهي بهذه البساطة، فالعنصر المأخوذ يسعى لجلب العناصر الاخرى والظروف الملائمة له من حضارته الاصلية، فيبدأ ردالفعل في الحضارة المغزوة بعنف وقد يؤدي الى مشاكل لا حد لها دون خير يذكر .

ولم يكن استعمال غاندي للمغزل والجومة المحلية لنسج القطن مجرد تسلية بل لشعوره بأن الخيط يجلب وراءه خيوطاً تتجمع وتنسج في نسيج اجتماعي حضاري غربي سيقضي على ذاتية الهند، ورأى انه اذا اراد ان يجنب الهند هذه النتيجة فمن الضروري الابتداء بالغزل .

وقد حلل المجتمع العربي الاسلامي الحديث الحضارة الغربية بصورة طبيعية الى عناصرها ، فانتبه للتبشير الذي يحمل الثقافة الغربية وشل اثره ومنع تغلغله، وحاول تقليد قوة الغرب المادية ليستعملها ضده فلم ينجح في عزل النواحي المادية عن غيرها تماماً ونرى انه تردد في بعض الاقطار واندفع في اقطار اخرى كتركيا، وبان الاتجاه كان بسيطاً قاصراً على ناحية لكنه سرعان ما غمر كل شيء وجعل حتى تركيا تعيد النظر اخيراً في وجهتها. هذا ولم يدرك بعد الصلة بين القوة وبين العلم التجريبي وبين الاقتصاد .

ومع اننا انتبهنا تدريجياً الى العلم الا ان العناية بالاقتصاد اهملت بدرجة غريبة . ونظرنا الى النظم الغربية واخذنا بعضها منفردة عن الثقافة التي احاطتها والبيئة الاجتماعية والنفسية العامة التي نشأت فيها. ومن نتائج ذلك ان طبيعة هذه النظم اختلفت وآثارها لم تكن كما كنا ننتظر، بل ان كثيراً من المفاهيم الغربية صارت لها مفاهيم اخرى لدينا ، وذعرنا لكثير من النتائج.

ويبدو لي ان الشرق العربي لا يزال يتلمس طريقه ،ولا يزال موقفه في اشكاله المختلفة المبعثرة وليد شعور بالاخطار ووليد نفرة منها ووليد شك بما تمثله الحضارة الغربية بالوجه الذي بدت فيه . ولذا فهو يعنى بالاستفادة من نواحي القوة غير مكترث بتحليل اشتباك نواحي الحضارة الغربية وصعوبة تجزئتها .

وقد اخذنا نشعر ان الاسس هي القيم والمثل والمقومات التي تكوّن الذات الحضارية وان هذه لم يتعد اثر الغرب اعادة النظر فيها وقلة الثقة بها موقتاً ، وان مجابهة الغرب ادت الى تجديد العناية بها وكلما زاد الاحتكاك بالغرب تجددت العناية بها وتأكدت إلى جانب العناية بالعلوم والصناعة والاقتصاد .

وهذا الشعور بحد ذاته دليل على يقظة واعية بعد تنبه مرتبك . وما دام الطابع الحضاري يعتمد عليه وما دامت العلوم والصناعة والاقتصاد عالمية امكن الاستفادة منها في المجتمعات والحضارات المختلفة ويتوقف على عبقرية كل حضارة نوع الاستفادة ووجهتها . كما انه ليس من الضروري ان تمر المجتمعات الآخذة بنفس الدروس التي مر بها الغرب لاختلاف الجذور التاريخية من جهة ولامكان تجنب الكثير من الاخطار والمشاكل من جهة اخرى .

لقد جوبهت الامة العربية بهزات مختلفة في الماضي والحاضر وكانت استجابتها لهذه الهزات مختلفة . فهي حيناً ايجابية كما هو الحال في نهضتنا الاولى وفي فترة الحروب الصليبية وحتى الان في الفترة الحديثة . وهي حيناً سلبية كما حصل عند الفتح المغولي وما تلاه . وترى ان استجابة الامة ايجابية حين تكون نتيجة لفهمها لمشاكلها وللاخطار التي حلت بها وحين تضع خطة ايجابية تضمن التوجيه والحلول لمشاكلها وتحقيق اهدافها كلًا او جزءاً .

ومن المفيد هنا ان نقارن بين نهضتي العرب في تاريخهم المعروف — النهضة الكبرى في دور ظهور الاسلام ، واليقظة الصغرى وهي يقظة الامة في العصر الحديث ولكل منهما ممهدات واتجاهات مع وجود فوارق مهمة وملاحظة الممهدات والاتجاهات بضوء ظروف الامة التاريخية للكشف عن نواح مهمة .

وعلينا ان نلاحظ مبدئياً قبل المقارنة ان اليقظة الصغرى هي استمرار وبرعم من النهضة الكبرى . ففي النهضة الكبرى نرى ممهدات تسبقها، فهناك وعي ديني يتضح في حركة الاحناف وفي التبرم بالعبادة الجاهلية التي استحالت الى طقوس جامدة ونرى وعياً سياسياً داخل الجزيرة بعد ان اطبقت عليها الدول من اطرافها — البيزنطيون في الشمال الغربي والاحباش في الجنوب والفرس في الشمال الشرقي والجنوب الغربي ، ونرى وعياً اجتماعياً يتمثل في حركة الاسواق وفي نهضة المجتمع المكي التجاري وفي الاتصال بالحضارات المجاورة، ووعياً ثقافياً يتمثل في ظهور اللهجة الادبية العربية التي تطورت الى الفصحى واصبحت فيما بعد لغة الثقافة .

اما مركز الحركة ففي جهة حرة من الجزيرة وعلى طرفها ، في الحجاز الذي يمثل خلاصة ثقافة الجزيرة وحضارتها والذي هو

خارج حدود سيطرة الدول الثلاث التي اشرنا اليها (البيزنطية والساسانية والحبشية) وهو الذي قام بحركة التحرير .

كما ان الحركة سارت بخطى منسجمة بان بدأت بالسيطرة على المركز (الحجاز) ثم تدرجت الى توحيد العرب في الجزيرة وبعد ذلك فقط جابهت الخارج .

اما في الحالة الثانية فنلاحظ ظهور وعي ذاتي اسلامي محدود في بعض المناطق في الشام والجزيرة ثم في مصر. وهدفه نفض الخمول والرجوع لمنابع الاسلام الاولى .

ثم هناك الموجة الغربية الخارجية التي بهرت الشرق الادنى بتقدمها المادي وبرقي حضارتها ودفعته الى تقليدها من جهة كما اشعرته بالخطر بتغلغلها السياسي والمالي وبمحاولاتها التبشيرية من جهة اخرى وولدت الشعور بضرورة رد هذا العدوان الخطر .

وهنالك حركة وعي ثقافي في الهلال الخصيب خاصة ، فيها استنهاض للهمم بالتذكير بالماضي ، وتدرج الى بعث اللغة والى محاولة احياء التراث الادبي ، وتطور — نتيجة موقف الترك — الى ثورة على الوضع والى تبلور الحركة القومية .

أما الوعي في الناحية الاجتماعية فقد بقي خاملاً لفترة ولم يتعد تقليد الغرب ولنا في حديث عيسى بن هشام للمويلحي (مطلع القرن العشرين) خير دليل لذلك .

ونلاحظ ايضاً ان مركز الثورة على السيادة الاجنبية والمحاولات الاستقلالية حصلت في ثلاث جهات كلها تحت السيادة العثمانية — قوية أو ضعيفة — وهي حركات اختلفت في وجهتها. فالحركة الوهابية كانت محلية اصطدمت بالدولة المسيطرة وبحليفها محمد علي فضربت ضربات قاصمة . وحركة محمد علي لم تكن إلا محاولة خارجية لتكوين امبراطورية في الجزء العربي فلم تلق استجابة خارج مصر. ومع انها توسعت موقتا الى الشام إلا ان اثرها لم يتعد مصر . وكلا الحركتين لم تلق استجابة خارج منطقتها ، فكانت محلية .

ولعل المحاولة السياسية الوحيدة التي تعدى صوتها حدودها الاقليمية هي حركة الشريف حسين التي وجدت من يسندها في الهلال الخصيب اضافة الى الحجاز، لانها وثيقة الصلة بالوعي العربي في هذه الجهات، ولانها اصبحت بعد قيامها رمز هذا الوعي، ومع ان الظروف اسعفتها موقتا إلا انها كانت أضعف من ان تجابه المطامع الاستعمارية المتوثبة التي خلفت الامبراطورية العثمانية المنهارة .

ومع وجود قوى متضاربة داخل الجزيرة العربية في حركة الاسلام الكبرى إلا انها تنازعت السلطان فيما بينها دون تدخل خارجي ، فتغلبت الحركة الاسلامية المتوثبة قبل ان تجابه القوى الاستعمارية بينما كان الاستعمار — عثمانياً أو اوربياً — عاملاً اساسياً في وقف الحركات التحررية الحديثة عند حدها .

هذا من ناحية الظروف المادية ولننظر الى الاسس :

ففي النهضة الاولى تبلورت اوليات الوعي في النواحي المختلفة في حركة واحدة. نعم اؤكد وحدتها في الحركة الاسلامية التي كانت حركة شاملة تعالج كافة نواحي الحياة : سياسية ، اجتماعية ، اقتصادية ، ثقافية ، روحية ، تتميز بان لها ذاتاً وشعوراً بالكيان، ودعوة الى رسالة. أما في الفترة الحديثة فان الوعي اتخذ وجهتين — وجهة ثقافية قومية ووجهة اسلامية — وهذه ناحية ضعف واضحة كان للظروف الداخلية والخارجية اثر فيها . إذ انها أحدثت فجوة في الصفوف مع ان عوامل الصلة والتقارب والانسجام قوية بين الوجهتين. ولتوضيح هذه الصلة اذكر ان الحركة الاسلامية الكبرى كانت صرخة ضد الكثير من القيم والمثل وصرخة ضد هذه البداوة وضد كثير من النواحي المادية المألوفة ، ولكنها مع ذلك كانت عاملاً اساسياً في بعث الارث المتمثل في اللغة . بل ولعلها مسؤولة عن تنمية اللغة وشمولها بصورة لا سابق لها، فهي لم تقطع هذا الاساس الشامل بل نمته. وبتطور الاسلام ودعوته كان الاتجاه الاسلامي والاتجاه اللغوي الثقافي عصبي الحياة والاستمرار طيلة تاريخ العرب، ومعنى ذلك ان كل دعوة لتجديد الذات وبعثه ملزمة بان تستند اليهما معاً .

أما من ناحية الشمول فالوعي بوجهتيه لا يزال ناقصاً وإلا فأين البرامج والاتجاهات الواضحة التي تعطي الحلول لمشاكلنا بنواحيها المختلفة ، سياسية ، واجتماعية، وثقافية واقتصادية ... نعم ان الخطر الخارجي شغلنا بالناحية السياسية ولكن الظن بامكان فصل نواحي الحياة العامة في حد ذاته دليل على عدم تكامل الوعي (لقد كانت الحركة القومية حتى قبيل الحرب الاخيرة حركة سياسية رومانتيكية ليست واضحة الفلسفة أو البرنامج) . لقد شغلنا الخطر الخارجي عن المشاكل الداخلية ولا يزال موقفنا منها في كثير من الاحيان سلبياً في حين اننا لم نتفحص المشاكل والأوضاع على ضوء نشأتها وظروفها ولم نضع الحلول ونرسم الاتجاهات التي تضمن السير الموجه . وفوق هذا

— التتمة على الصفحه ٧٦ —

خطوط في تاريخنا

— التتمة من الصفحة ٤ —

نرى العاطفة تتحكم في مواقفنا ومع أننا نقر ان العاطفة مصدر للوعي إلا انها لا توحي بفلسفة للحياة ولا تكفي لوضع الحلول.

ارجو ان لا يستنتج من هذا اننا لم نسر قدماً في نهضتنا ولكني اقول ان الايجابية لا تزال تنقصنا في كثير من امور حياتنا . فمن سوء الظروف ان غزتنا موجة الغرب الواسعة في بداية نهضتنا وتسلطت علينا ، وكان من اثرها ان ربطنا بين قوة الغرب المادية وبين تقدمه. ولما كنا في دور ضعف تزعزعت ثقتنا بمقاييسنا ومقوماتنا واسرعنا للاقتباس من مظاهر المدنية الغربية دون فهم لأسس تلك المدنية واسباب تفوقها . والعلة هي في اننا اخذنا الكثير من نظم الغرب وفرضناها احياناً على بيئة لم تهيأ لها وطبقناها بالعقليات والاساليب الموروثة البعيدة عن تلك النظم ، بل اننا حتى في العلوم لم نحاول تكوين الروح العلمية والخلق العلمي بل سرنا على طريقة التلقين الموروثة من عصور الخمول .

وكان من المنتظر ان تكون نظمنا التعليمية وسيلة لبعث النهضة الشاملة ولاعدادنا للمستقبل الجديد ولكنها كانت وبقيت زمناً نسخة مرتبكة لنظم التعليم في هذا القطر العربي او ذاك فلم تنجح في تكوين فلسفة تعليمية واضحة ، ولم تتمكن من جعلها وثيقة الصلة باهدافنا وحاجاتنا كما انها لا صلة لها بارثنا ولا نزال جاهدين لاعادة النظر فيها .

ولم يكن تأثرنا في الغرب شاملاً بل قبسنا عامدين في ناحيتين : النظم ونظام التعليم . اما الاقتصاد واما العلم التجريبي واما البحث فلا نزال على ابوابها . وهذا الوضع نتيجة لتأثير اصحاب الدعوة الى اقتباس خير ما في الغرب وهي نظرة لا تخلو من خيبة امل في الكثير مما اخذنا ولا تخلو من عدم تقدير لوحدة الحضارة الغربية ومن عدم ربط للاوليات بالنتائج .

ويبدو لي اننا كنا لفترة طويلة ولا يزال بعضنا حتى الآن في دور التقليد البطيء للغرب ، التقليد المبتور — الذي املته الظروف — ظروف البلد الجغرافية والمعاشية والسياسية ، وقد جرفنا السيل الخارجي فزلزل اقدامنا . وقد آن الاوان لنعيد النظر من اجل أن نفهم ذاتنا ونحدد وجهتنا وعندئذ فقط نستطيع توجيه النهضة كما نريد .

ومن مظاهر هذا التقليد تعدد الاتجاهات الفكرية والاجتماعية والاقتصادية المستوردة من الغرب بشكل مستعجل مرتجل عاطفي ، فصار كل منا يتحمس لشيء لا يمت لبيئته وقد لا يمت لحياته بصورة من الصور . وليتنا رجعنا لأصول هذه الاتجاهات وفهمنا ظروف نشأتها والمشاكل التي وضعت لحلها ، وليتنا ادركنا انها نتيجة لتطورات اجتماعية اقتصادية سياسية لمجتمعات ومناطق معينة وانه لا خير يرتجى من اي حل او اتجاه يتجاهل مشاكلنا ووضعنا وارثنا وان دراسة هذه بديهية اولية قبل كل شيء . وكانت نتيجة هذا الجري وراء الاتجاهات المستوردة ان نسينا في الغالب انفسنا وانغمسنا في اطار النظريات الخارجية وانغمرنا في خروب تستند الى «كليشيهات» يصح ان تحصل بين اناس يعيشون في المريخ .

ولعلك تقول اني لم افصل في ناحية الوعي الاسلامي ولم ابين ان كانت له برامج شاملة . وهذا حق ، ولكني اكتفي ببعض الملاحظات. فالمشكلة الاولى او الوجهة الاولى التي دعا اليها جمال الدين ومحمد عبده واقبال هي في اعادة عرض الفكر الاسلامي والمباديء الاسلامية بصورة مفهومة لعقلية الناشئة تستجيب لحاجات هذا العصر. لقد كانت البداية وهي الرجوع للمباديء الاسلامية والقيم الاسلامية سليمة ، ولكن تطبيقها يتعدل حتما بين فترة واخرى حسب المقتضيات والظروف ، وهذا ما لم يحس به اصحاب الاتجاه الاسلامي الا اخيراً . ومع ان جهوداً تبذل لوضع برامج تفصيلية تستند الى هذه الناحية الا انها لا تزال في بدايتها . ولن اشير هنا الى تلك الموجة التي حاولت تفسير مباديء الاسلام وتفسير انتاج العرب والمسلمين في التاريخ لتدل على ان مخترعات الغرب ونظرياته كانت موجودة لدينا فهذه نظرة لا تخلو من ضيق في الافق ومن تقليد خطر . فالمخترعات والنظريات عرضة للاصلاح وللتبديل ، ومعنى ذلك اننا ربطنا مقودنا بعجلة الغرب واينما سارت سرنا في تفاسيرنا. وهذه موجة لم تظهر الا في دور كان الشعور بالضعف فيه قويا واننا لنرجو ان نكون قد اجتزناه .

ومع اني اتحدث عن الوجهة الاسلامية إلا اني الاحظ تعدداً في الحركات التي حملت هذه الوجهة في البداية. وهذه حالة منتظرة ولعل الاتجاه يقوى للسير في وجهة واحدة .

لعلي اوغلت قليلاً في المقارنة بين النهضة الكبرى واليقظة الحديثة ولكني اريد العودة لنقطة اخرى في المقارنة . وهي

ناحية التضامن الشامل في الحالة الأولى وناحيـــة التجزؤ في الحالة الثانية .

ففي النهضة الكبرى كان التبدل على اساس خطة ورسالة واضحة من البدء ، مما احدث تغييراً في النفوس والافكار نتيجة حركة تعليمية تبشيرية بهذه الآراء (ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم) .

وولد ذلك وحدة في الصفوف وتضامناً . فالمجتمع الاسلامي كتلة واحدة هي الجماعة وهذه الجماعة تنتظم في مبدأ خطير وهو حرية الفرد وصيانة ماله وكيانه مع التأكيد على الجماعة وتوفيق بين حرية الفرد وكيان المجموع بشكل متين الحبك ، جعل الفرد يتفانى في خدمة الجماعة وفي الشعور بقيمتها لانه يرى في ذلك مصلحته وكيانه وحريته ، لذا لم تكن النهضة جانبيـة بل متشابكة ، فيها القادة والموجهون الافذاذ وفيهـا الوعي الشعبي المتضامن والذي يتمثل في المنظمات والمؤسسات الشعبيـة ، فالكتائب والحلقات الدراسية والمدارس والجامعات لم تكن مؤسسات حكومية بل شعبية يصرف عليها الشعب بسخـاء ويخصص لها الاوقاف . فوضعت لنفسها الخطط والبرامج واستندت الى فلسفة تستوحي من مبادىء الاسلام ومن نهضة الامـة وحيويتها فرسخت واستقرت حتى عجز الفاتحون عن التبديل بل انهم انصهروا في كيانها الحضاري .

اما في اليقظة الحديثة التي تلت دور الركود والانحلال ، فان الثغرات كثيرة وعوامل التجزئة فعالة ، فهنالك فجوات بين المتعلمين وبين السواد ، وبين المدينة والقبيلة ، وبين المدرسة والبيت ، وبين القدماء والمحدثين ، وبين المسنين والشبـاب ، وبين الأب وبنيه ، وبين النسب المستند الى مآثر الاجداد وبين الحسب المستند الى المال المكتسب والثروة . ونحن لا نحس بالوعي الشعبي الذي يساهم في المشاريع العامة . وبعد هذا نرى ان اقوى ظاهرة لدينا هي النقد او بالاحرى عدم الرضا بشيء والتبرم الذي يصحبه الضيق بكل شيء حتى نصل الى مرحلة هي اليأس بعينه . نعم ان النقد ضروري ولكنه لا يفيد ان وقف عند ذلك وان لم يصحبه اتجاه ايجابي . وقـد لاحظنا ان كثيراً من النقد لا يستند الى فهم للاوضـاع او دراسة للمشاكل ولا اظن ان هذا النقد والتبرم يقتصر على فئة دون اخرى ، فكل فئة ترمي غيرها بالتقصير وهذه بادرة ملحوظة في فترات الارتباك .

ونجد إلى جانب هذا من وهب النظريات والآراء والأفكار اللامعة ولكنه لا يرى في الظروف عونـاً ، فهو قابع ينتظر تبدل الظروف بعصا سحرية لتظهر عندئذ عبقريته .

ان فكرة الجماعة والتضامن الانشائي كانت قاعـدة النهضة الاسلامية الكبرى . وقد نجحت هذه الجماعة في تكوين حضارة وقيم ومثل ونفسية مشتركة استند عليها دورهـا الاكبر في التاريخ . وان انت دققت النظر تجد ان بعض الشعوب دخلت في الاسلام وتعربت وان جماعة اخرى تعربت دون ان تسلم ، بينما أسلمت شعوب دون ان تتعرب وهذه كونت جالة حضارية بشرية دائرتها الوسطى عربية الثقافة واللغة ودائرتهـا الكبرى إسلامية الثقافة والميل ، وما بين الدائرتين اختلاف في الشكل . وكان للتسامح والبحث عن المعرفة والتعاون الاقتصادي المستند الى توزيع المهن بين الجماعات البشرية ما جعلها تتعاون لفائـدة الكل ، ولهذا نجد شعوب الشرق الأدنى تلعب دوراً مهمـاً في الانشاء ، بل انها قامت في العصر الاسلامي بنهضة حضارية لم تعرفها عصورها السابقة . وان نظرت الى تاريخ الفرس مثلاً او الآراميين او الترك تجدهم يخرجون كوكبة لامعة لا مثيل لها في الفترات السابقة . وانت تجد الكاتب نفسه يكتب بالعربية والفارسية واحياناً التركية في آن واحد . ولنا من ابن سينـا والبيروني مثالان ناطقان على ذلك .

وهذا يفسر لك بوضوح هذا الارث الثقافي المشترك الذي يشد المجموعات البشرية في الشرق الأدنى ويشير الى أن البناء شيد على صرح ثقافي مشترك (تصحبه نفسية مشتركة وقـيم مشتركة) لا على صرح عنصري . ولذا لم تكن فكرة الأقليات معروفة بل انها فكرة دخيلة تحللت مع الموجة الغربية لأسباب معروفة . وهي تستند الى الفكرة العنصرية التي أنتجها الغرب كما حاولت بعض الدول الطامعة إدخال نعرات أخرى لتمزيـق الشمل والسيطرة على المجموع .

ويبدو لي ان الفكرة العنصرية ظهرت كنزعة رومانتيكية وكرد فعل للموقف التركي الطوراني ، ثم نتيجة لتأثيرات خارجية متأخرة معروفة ولفترة موقتة ، إذ سرعان ما ظهر خطرهـا وأظهر بطلانها التفكير الذاتي الانشائي .

ولعلك حين تنظر الى الوعي الذاتي في الفترة الحديثـة كما يتمثل في الحركات العربية والاسلامية تجده خالياً في الأساس من هذه الفكرة ، فالحركة القومية لم تكن عنصرية بل ساهم فيها العربي والكردي والبربري والمسيحي والمسلم ، كل ذلك نتيجة

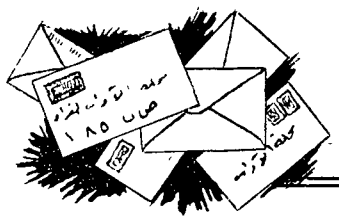

صندوق البريد

اقتراح بترجمة الروائع العالمية

استوقفني طويلاً استفتاؤكم « هذه الكتب يجب ان تترجم الى العربية » وانه لأمر بالغ الاهمية ذلك الذي تناوله هذا الاستفتاء . فليس هناك من يشك بأن الانتاج الادبي والعلمي في اللغة العربية لا يمكن ان يصل الى المستوى العالمي العالي الذي نرتجيه له ما لم يطعم بنتاج عقول الشعوب الاخرى ، بل انه سيبقى محدود الاهمية محلياً لا يهتم به غير ابناء البلاد العربية بل وحتى في البلاد العربية صارت الطبقة المثقفة منا تولي وجهها شطر اللغات الاجنبية تروى منها ظمأ قصر عن ريه الانتاج العقلي في لغتها . واعرف الكثير من اخواننا في العراق يمر بهم العام والعامان ولا يقرأون في اللغة العربية سطراً واحداً اذا استثنينا تصفحهم للجرائد اليوميـة السياسية ، في حين انهم يقبلون على الكتب الاجنبية كل الاقبال وهكذا كاد الانتاج العربي ان يقتصر على تلك الفئة التي لم يتح لها الحظ ان تجيد لغة اجنبية فقط !

ولقد اوحى الي استفتاؤكم ذلك بفكرة أرجو ان تنال اهتمام (الآداب) ان رأيتموها جديرة بذلك الاهتمام وهي ان تنظم الجامعة العربية مشروع سنوات خمس تتعاون اثناءها الدول العربية على ترجمة خمسمائة كتاب اجنبي في شتى المواضيع ومن مختلف اللغات تختارها لجنة معتمدة من كبار اهل الرأي في البلاد العربية وتعين خيرة المترجمين العرب لهذه الغاية . ومشروع كهذا من شأنه انعاش الحركة الفكرية في البلاد العربيـة التي أصاب الركود ولا افول الشامل حركاتها العلمية والادبية .

أليس لدى الدول العربية من الامكانيات ما يجعل تنفيذ هذا المشروع امراً ميسوراً ؟

وان كانت الجامعة العربية اكبر من أن تعنى بمثل هـذه الامور وكانت اعتاداتها اثمن من ان تصرف في هده الوجوه فلم لا تتعاون المجامع العلمية في البلاد العربية على هذا المشروع بدلاً من أن تصرف مرافقها في أقامة ماريات مطعون في حيادها وتشجيع كتب مشكوك في فائدتها للناس ؟

وان ترفعت المجامع العلمية ايضاً عن هذا المشروع ، أفلا توجد في العالم العربي الطويل العريض كله جهـة تتبنى هذا المشروع الوطني الخطير كدور النشر الكبيرة مثلاً وهو مشروع لا بـد وان يدر عليها الربح الوفير الذي تتوخاه هذه الدور ؟!

بغداد الدكتورة لمعان امين زكي

عودة الى « البعث الافريقي »

حمل « اديب قعوار » في عدد « الآداب » العاشر حملة قاسية على شاعرنا الثائر الاستاذ « الفيتوري » لانـه نادى بالبعث الافريقي ، وأنا لا صلة لي بالشعر الا اني اتذوقه ، فليس لي ان اشترك في هذه المعركة التي تدل كل الدلائل على انها ذات حميء .. لذا ابادر فارفع راية التسليم في معمعة الشعر والقافية ...

ولكني احب ان اعالج الموضوع من زاوية اختصاص ، وهي حديث «قعوار» معاً ، كانت مصدر نهضتنا الاولى وسر بقائنا خلال العصور رغم الموجات والهزات ، وكانت منبت الوعي في الفترة الحديثة ، وواجبنا ان ندرك هذه الرسالة الحضارية وان نتعهدها في عصر التكتلات والروابط المصلحية والمادية، فرابطتنا أقوى وأرسخ . وأرجو ان لا نكون كنمرود حين ارهقه الصداع في رأسه فلم يفكر بعلاجه بل فكر باستبداله برأس من ذهب ، ولما نفذت مشيئته زال من الوجود وعاد الذهب الى الارض .

الارث الثقافي المشترك وذكريات الحياة والجهاد الماضية ووحدة المصلحة والجغرافية والنفسية المشتركة . وهذا ينطبق ايضاً على الحركات الاسلامية البعيدة عن الفكرة العنصرية وما يتصل بها .

وان كان الغرب جاء بالفكرة العنصرية وأكدها ، فلأنها في جذور تاريخ شعوبه كما يتضح ذلك من انطباق الوحـدة اللغوية على الوحدة الجغرافية ، على عكس الحال في بلادنا، ذلك لاننا اخذنا طريقاً في الحياة يختلف في الاساس .

ولهذا ايضاً نرى في الارث الثقافي المشترك وفي القوميـة الثقافية استجابة لحاجـة ووعي سكان الشرق العربي . وليس من مصلحتنا ان نستورد أو ان نقر فكرة الاقليـات التي تمزق الكيان خاصة إذا تذكرنا انه يوجد في الشرق العربي ما يزيد على عشرين اقلية عنصرية ومذهبية . وليس امامنا ان اردنا الحياة الكريمة في نهضتنا إلا الجماعة التي تنتظم كل من نشأ في هذه التربة .

لقد ورثنا رسالة تاريخية كبرى تتجلى في العربية والاسلام

إنني لم أتنقل بين خطوط التاريخ الاسلامي إلا ليقيني بأنه آن الأوان لان نتفحص انفسنا وان نفهم ذاتنا لاننا اصبحنا في كثرة اتجاهاتنا مثل برج بابل مجمعاً لكل وجهة وكل نعرة كما اني اودت ان اتبين — جهد المستطاع — خطوط الوعي الذاتي الحديث ونواحي ضعفه ، لان ذلك يساعدنا عـلى ان نكون علميين وعمليين في تفكيرنا ومعالجتنا لمشاكلنا وان لا نكتفي بنقل النظريات والآراء ولا بالأشكال والمظاهر .

بغداد عبد العزيز الدوري